المواطنة العراقية

مفهوم للمصالحة والخلاص الوطني

جاء انتهاء الحرب العالمية الاولى باحتلال ولايات البصرة وبغداد والموصل من قبل بريطانيا ليمثل نهاية العهد العثماني الذي دام عدة قرون وبدء عهد جديد، نجم عنه ما يعرف اليوم بالعراق. ان مصطلح دولة العراق هو أمر حديث دون شك. فعراق اليوم بحدوده الحالية، رغم الوشائج التاريخية والعوامل الجغرافية التي تجمع سكانه، هو ظاهرة جديدة لم يسبق لها وجود في التاريخ بهذا الشكل المعروف فأرض العراق الحالية كانت اما جزءا من كيان اكبر أو موزعة بين كيانات مستقلة عن بعضها البعض.

كانت المشكلة الاولى عقب وضع الحرب أوزارها تدور حول مستقبل هذه الولايات الثلاث التي اصبحت مقدراتها بيد الانكليز في الدرجة الاولى، واختلفت اجهزة القرار البريطاني بشأن مستقبل هذه الولايات بين ما يعرف بالمدرسة الهندية، ممثلة بالسير آي. تي. ولسن، التي تفضل حكم بريطاني مباشر، وبين ما عرف انذاك بمدرسة القاهرة، التي تنتمي اليها المس بيل، الداعية الى حكم بريطاني غير مباشر، من خلال اقامة حكم اهلي عراقي. وهناك من يقول بأقامة ثلاث حكومات في كل من الموصل وبغداد والبصرة، وأخرين مع فكرة الدولة الموحدة المكونة من الولايات الثلاثة.

لقد طرح الرواد العراقيون الاوائل فكرة الاستقلال الوطني، وهي فكرة حديثة تماما بالنسبة للغالبية العظمى من السكان، ليستقطبوا فيها العراقيين بشتى مذاهبهم وطوائفهم وعناصرهم للاتحاد من أجل كيان عراقي جديد مستقل وموحد. الى أى مدى كان هؤلاء الرواد مستوعبين مفهوم الاستقلال والعراقية ؟ وأين كانوا يقفون من مفهوم نظام الحكم المناسب للعراق ؟ وما هو مفهومهم للعلاقة بين هذا الكيان الجديد وسلطة الاحتلال البريطاني ؟ أسئلة كثيرة اصبحت فيما بعد تشكل مصدرا لتيارات سياسية مختلفة. ولكن اندلاع ثورة العشرين برزت بوضوح تبلور مفهوم سياسي حديث وجديد ألا وهو "العراقية"، بمعنى الدعوة لكيان عراقي مستقل وموحد. كما ان القوى السياسية الوطنية آنذاك كانت عراقية في تصوراتها وتعتمد على قواها الذاتية وليس على أية قوة أجنبية، ويدفعها تحقيق مصلحة وطنية مشتركة بعيدة عن النوازع الطائفية أو العنصرية. فقد التقى ابناء الريف والمدينة، والشيعي والسني، وابن الموصل بابن الفرات والجنوب ببغداد في جبهة وطنية عريضة، ورفع رجال الدين الشيعة شعار الدولة الدستورية وليس الدينية، كما يقول البصير وهو من المشاركين في الثورة في كتابه "القضية العراقية" الصادر عام 1923 : "لا صحة لما قيل من أن علماء الشيعة صاروا يبثون الدعوة لانشاء حكومة دينية تأتمر بأوامر الشريعة" ، بل كان "الجمهور في بغداد والكاظمية والنجف وكربلاء وبقية اصقاع القطر وعلى رأسه طبقة المفكرين وعلماء الدين كان راغبا كل الرغبة بانشاء حكومة

عربية مستقلة يرأسها أحد انجال جلالة الملك حسين كملك على العراق". وان مسيرة احداث تلك السنوات تشهد على الائتلاف الوطني اللاطائفي الذي كان له اثر كبير في قرار بريطانيا اعتماد سياسة حكم غير مباشر، الذي يعرف بالحكم الاهلي وبقاء العراق موحدا.

ان عراقية ثورة العشرين لا تعني عدم تأثرها أو تفاعلها مع الاحداث السياسية في المنطقة أو العالم. فقد تأثرت القيادات العراقية (مثقفون ووجهاء ورجال دين) بالاحداث السياسية العربية وابرزها ثورة الشريف حسين في مكة، والثورة في مصر عام 1919 بزعامة سعد زغلول، والامال الكبيرة التي كانت معقودة على الحكم العربي الجديد في سوريا. أي ان البعد العربي كان ماثلا وحاضرا في تصورات ودوافع الرواد العراقيين الأوائل. وقد كان للضباط العراقيين العاملين في سوريا وللحكم الوطني فيها دوراً بارزاً في اسناد حركة الاستقلال العراقية.

كما كان للتطور السياسي العالمي وبالذات الوعود والبيانات الصادرة عن دول الحلفاء، خاصة فيما يتعلق بحق تقرير المصير، دورها في تنشيط توقعات وآمال كان العراقيون حديثي عهد بها. واستشهد مرة اخرى بالاستاذ البصير عند حديثه عن نشأته " وكنت أقرأ الصحف والمجلات ولكن بصورة غير منظمة، كما كان اهتمامي بالسياسة محدودا. ولكني اقبلت على السياسة إقبالا شديدا عندما اعلنت فرنسا وانكلترا في 8 تشرين الثاني 1918 أنهما منحتا السوريين والعراقيين الحرية التامة في اختيار الحكم الذي يريدونه . . .فاخذت أدعو لأستقلال العراق بحماس والتف حولي الكهول والشيوخ. . ."

ان ثورة العشرين كانت اللبنة الأولى في عملية بناء المواطنة والوطن العراقي. واستطاعت استقطاب العراقيين بمختلف طوائفهم وفئاتهم، وأصبح الفرد البغدادي أو الحلي او الموصلي يقول للمرة الاولى أنه عراقي أولا. ويعود الفضل في توحيد الطوائف والفئات العراقية بالدرجة الاولى الى عدائها لسيطرة الاجنبي المتمثل انذاك بالانكليز، والى وحدة قيادتها الوطنية. إن استمرار تلك الممارسة وذلك النهج كان كفيلا ببناء شخصية عراقية متماسكة قوية، الا ان بعض الاحداث والتصرفات السياسية، خاصة ما يتعلق بالحكم الاهلي والاستقلال، وبالذات في العقود الاخيرة، كرست ممارسات سياسية وادارية اتسمت بالانفراد الفئوي والطائفي عرقلت عملية التوحيد الوطني والولاء المشترك. فعاد البعض مجددا يبحث عن الولاء العشائري أو الاقليمي أو الطائفي لحماية نفسه وهو بذلك، بوعي أو دون وعي، يهدم صرح البناء الوطني.

ان البيت العراقي يقوم على الائتلاف والتعاون الوطني بعيدا عن أية هيمنة أجنبية، ولا يزدهر أو يدوم بدون استمرارهما، كما أن تعدد النزعات القومية والمذهبية يصبح مصدر ضعف كلما سعى احدها للانفراد أو الهيمنة. وتصبح تلك التعددية مصدر غنى وقوة عندما تتعايش مع بعضها البعض كألوان منسجمة في لوحة واحدة. إن أي خروج عن هذا الائتلاف بدوافع طائفية او عرقية او حزبية هو معول في هدم هذا البيت الوطني.

ان المأساة التي يعيشها العراق اليوم هي نتيجة عدة عوامل، ولكن بدون شك، هي بالدرجة الاولى بسبب سياسة الانفراد التي بدأت بمقولة الحزب القائد، ثم تحولت الى حكم العشيرة ،الى ان اضحت جلية بحكم الفرد الواحد. وامام طغيان الفرد وغياب وتغيب الديمقراطية والمشاركة الشعبية الوطنية اصبح المواطن العراقي يبحث عن الحماية في ظل العشيرة والطائفة، واستفحل الامر حتى اصبح البعض يروج للاعتماد على الاجنبي الذي له المصلحة في امتداد نفوذه للعراق لإنقاذ الوضع. وبعد مسيرة، دامت اكثر من نصف قرن، للمواطنة والوحدة الوطنية نسمع اليوم من يتحدث عن العراق وهو يشيرالى اكراد وسنة وشيعة، وكأن ليس هناك عراق او عراقي. ان استبدال صيغة العراق بعبارة اكراد اوسنة اوشيعة تنطوي على كل عوامل الهدم والتقسيم. الى جانب كونها متناقضة منطقيا، فان كان التقسيم بين شيعي اوسني، فالاكراد سنة; واذا كان التقسيم بين عربي اوكردي، فان الشيعة عرب. ومع ذلك اصبحت نغمة التقسيم العرقي والطائفي تطرح بالشكل الذي يناسب مصلحة خصوم الوحدة الوطنية واعداء " المواطنة العراقية ".

ان محاربة الدكتاتورية واجبه وضرورة، ولكن محاربتها باسم الطائفية او العرقية او التبعية الاجنبية، هي اشبه بحال المستجير من الرمضاء بالنار.

ان اعادة بناء الولاء الوطني للعراق في اطار الوحدة والمشاركة الوطنية المتكافئة، هي الطريق الى الخلاص الوطني.

لندن 24 تموز (يوليو) 1991